شفيق حبيب
والنفخ في البوق

الراحل الأستاذ الناقد طلعت سقيرق

سوريـــا

منذ فترة طويلة، وعندما قرأتُ قصيدة الشاعر شفيق حبيب "مخبرٌ ومحقق" المنشورة بتاريخ ١٩٨٢/١١/١٩ توقفتُ طويلاً أمامَ هذا الكمّ الرائع من التحدّي والمواجهة في ذات الشاعر. فالقصيدة، تقفُ في وجه الاحتلال وتعلنُ صرختها المدوِّية، لتقولَ إنّ العذابَ ومهما اشتدّت أنواعُه وأساليبُه لا يمكن أن يكسرَ قدرة الروح على المقاومة والشموخ والثبات، وحين تكونُ مثل هذه الروح عند كل فرد فإنها تشكل معجزة المعجزات، في صوغ الروح الجماعيّ الشعبيّ القادر دون ريب على مواجهة الاحتلال بكل ثبات وقوة.

في هذه القصيدة "مخبرٌ ومحقق" يرتفعُ الخطابُ الموجّهُ للاحتلال ليقولَ ويصوِّرَ وينقلَ الذاتَ المتحدِّية، حيث "الأنا" تكبرُ وتشمخ وتعلي قامتها.. وحيث "الأنا" تشعرُ بارتفاع صوتها وقوةِ تواصلها مع الحاضر المتصل بالماضي :

هذا أنا

لا أنثني

لا أنحني

لا أقهَرُ

إنّي ابنُ شعبٍ صابرٍ

ما لانَ في وجهِ العواصفِ والرياحُ تزمجرُ

لنقع على تداخلِ الملامح، وتوحُّدٍ في الامتداد، فالإنسان الفلسطينيّ الفرد، هو في الوقت ذاته، الشعب الفلسطينيّ بمجموعه، لأنه ابنٌ له تراثٌ وامتدادٌ وواقعٌ مُعاش.. والشعب الفلسطيني، هو هذا الفرد الذي يعبر خير تعبير عن المجموع.. وهنا نكون أمامَ صورة الشعب / الشاعر.... والشاعر / الشعب.. وهي صورةٌ ذاتُ أبعادٍ هامّةٍ في إيضاح ملامح الشخصية الفلسطينية الفردية والجمعية..

في صورة هذا الشاعر الذي قرأت، برزتْ أمامَ العين وتبدّت قدرةُ الشعر على الوصول من جهة، وعلى إثارة خوف وخشية الاحتلال من جهة ثانية.. الشاعر شفيق حبيب يصرّ على أن الكلمة تستطيع أن تتوهّجَ لتكون نورًا ونارًا، نورًا ينيرُ الدرب أمام شعبه، ونارًا تحرق المحتلين. لذلك وقف الشاعر متحديًا جلادَه، ساخرًا من هذا " المتحضر" الذي يرتعش خوفًا من كلمة

الحق التي تقال، والشاعر في هذا ليس " خفاشًا" كالاحتلال الذي يحب العتمة والظلام.. إنه الشاعر الذي يرتبط بالشمس والضوء والنور لنكون في واقع الحال أمام صورتين متناقضتين متنافرتين.

الصورةُ الأولى هي صورة شعب فلسطين، الشعب المرتبط بالنهار والضوء والبحث عن الحرية.. والصورةُ الثانية هي صورة الاحتلال، وهي الصورة التي تطارد النهار وتدّعي "التحضر" مع أنها تؤْثِر العتمة والظلمة.. وفي تصادم الصورتين يعرف الشاعر أنَّ الغلبة للنور، وهو أمر حتمي، لا يحتاج إلى الكثير من البراهين، الواقع يقوله ويفرضه، والوقائع تؤيده وتسجله :

حققْ معي ما شئتَ يا متحضرُ /

أصبحتُ أزهو أفخرُ /

بقصائدي /

تخشَوْن عزمَ حروفِها /

غنيتها للأهلِ للأحرارِ /

صِدقًا تتقطرُ /

غنيتها للأرض طيبًا تنشرُ /

غنيتها لمواقفٍ لا تغدرُ /

حققْ معي /

أنا لست كالخفاش في ليلٍ بهيمٍ أظهرُ /

إنّي أحدّق في جبينِ الشمس كِبْرًا

إن مثلّ هذا التحدي لا يتوقف عند حد، حتى حين تنفجر الشهادة نهرًا من دماء.. هنا لا يريد الشاعر أن يكون الدمُ المتفجر صورةً من صور اليأس والانسحاب، صورةً من صور الانطواء على الذات دمعًا وانكسارًا وتفجعًا.. لا أحد يستطيع أن ينكر حجم الحزن وحجم الألم، إذ هناك سؤالٌ يكبرُ ويتحول إلى جرح في القلب على هؤلاء الراحلين.. لكن الشاعر يأبى أن يتحوّلَ الفاجعُ إلى انكسار في الذات الفلسطينية، إلى تراجعٍ وتراخ وانطواءٍ في النفس، من هنا الإصرارُ على أن الشهادةَ نورٌ وحياة، على أنّ الشهادةَ قوةٌ ومحرّكٌ ودافع..

يفتح الشاعر من خلال صورة الشهادة؛ وهي صورة مليئة بالكثير من الحياة والحيوية والغليان؛ العينَ والقلبَ والروحَ، على صورة القادم، صورة المستقبل الحافل بالكثير ليكون كلّ شهيد في دفتر الحضور اليومي. ودفتر التطلع إلى المستقبل، ضوءَ أملٍ لا يعرفُ الانطفاء..

وإذا كان للاحتلال كلُّ هذا الفرح الظاهر لأنّ دمَ الشعب الفلسطيني يراق ويسفح، وكلّ هذا الرقص المجنون على أنغام القتل

والتخريب والتدمير، فإن الشعب يتجددُ من خلال دمِه، من خلال سطور شهادته، من خلال ذهابه حتى العمق في عناق الأرض..

يعرف الشاعر ويعي، وهو ضميرُ شعبه وقلبه النابض، أن كمَّ الحزن هائلٌ وأن الشعبَ الفلسطينيّ المصابَ في صبرا وشاتيلا وسواهما يشعر بألم لا يعادله ألم، لكن كل هذا لا يعني الانكفاء، لا يعني السقوط في متاهة الدموع إلى ما لا نهاية. ولأن الشعبَ هو الشعب، فقد كان النهوضُ من خلال دم الشهادة توكيدًا على روح الاستمرار والمقاومة والتحدي... في هذا المسار يقول شفيق حبيب :

حققْ معي ما شئتَ يا متجبّرُ /

وارقصْ على آلامِ شعبٍ يُنحَرُ /

واشربْ كؤوسَ الخمرِ ما بين الخيامِ السّودِ /

في ساحات صبرا،... في شاتيلا /

إنّ خمرَكَ مُسكرُ /

حققْ معي ما شئتَ واعلمْ /

أنَّ طفلاً مزقتهُ قذيفةٌ تتفجرُ /

سيظلُّ نورًا يزرعُ الآتي ربيعًا يُزهرُ /

ويظلُّ يحيا في ضميري /

في كياني يكبرُ..

ولأن الانتفاضةَ التي تفجرت وعدًا وعهدًا لهذا الدم، هي صورة من صُوَر الألق المصرّ على الحياة والحيوية والاستمرار، فقد رأى شفيق حبيب في قصيدته "سأنفخ في البوق" أن يُصرَّ الإصرار كله على رفض أي صورة تشوِّه الألوان التي رسمها الأهل بانتفاضتهم الباسلة.. وحين رأى إلى الظلال السود وهي تحاول أن تطغى وتكبر، تشبث بصورة المستقبل التي يريد، وهي الصورة المليئة بالوعد والأمل والإشراق والتفاؤل:

عيونُ الصغار عناقُ الأماني /
ونسغُ الحياةِ من الجذر يصعدُ /
حتى خلايا غصونِ الخيالْ..

وكأنّ النفخَ في البوق إشارةٌ وعلامةٌ واستدعاء:

سأنفخُ حتى التصدّعِ /
حتى انشقاقِ البحارِ /
وكَسْرِ بريقِ النِّصال /
سأنفخُ في البوقِ /
حتى اخضرارِ سلالِ التوهُّج /
في عاصفاتِ الغِلالْ...

وحين يرى الشاعر شفيق حبيب شيئًا من غياب الوطن يكبر الحزن ويُزهر ليقول في قصيدته "الأدوار" صرخته التي تمتدّ ولا تنطفئ وكأنه يرسم ملامحَ الوجوه وهي تطرح الكثير من أسئلة الغضب والانفعال. في هذا يميل الشاعر إلى الوطن الذي يريد، الوطن الذي يشتهي أن يكون، حيث الشوارع هي الشوارع والشبابيك هي الشبابيك، والدروب هي الدروب... عندها يطرق الحزنُ كلّ باب ويتحول إلى قبضة تهز الوجود:

عاصفٌ حزني كأمواجِ الغضبْ /

عاصفٌ كالنارِ تسري /

في ضلوعِ العشبِ /

في بطنِ الحَطبْ...

هل يعني ذلك أن يكون الحزن طريقًا إلى تحقيق الصورة المشتهاة، إلى تحقيق الصورة الحلم..؟؟.. هنا يميل الشاعر إلى قرع الأبواب بصورة أخرى، حيث يرى أن " النخيل النازف الظمآن / يستجدي ترابَه..".. وكأنه يبحث عن كل الملامح الضائعة، عن كل الدروب والشبابيك والوجوه والخطوات.

في قصيدة أخرى تحمل عنوان "تراكمات" لا نبتعد عن وقع هذا الكمّ من الحزن. وهنا قد نجد ملمحًا آخر، لا نجده في قصيدة "الأدوار".. حيث يطرح الشاعر صورة "الأنا" في انكسارها المُحمّل بالوجع حتى حدود التشظي :

بعضي ينهارُ على بعضي

أتراكمُ أجزاءً أجزاءْ

ثم وفي نوع من التركيز على هذا الحزن في "الأنا" تأتي الصورة لتقول :

أتلاشى مثلَ شعاع الضوْءِ

الباكي في ثغرِ الظلماءْ

وهو ما يدفع إلى الإحساس بالغربة الثقيلة الجارحة، الغربة التي تفتت وتبعثر القلب :

يا مُرَّ الشهدِ

وشهدَ المُرِّ

غريبٌ يبحث عن عنوانٍ

مكتوبٍ بالماءْ

إن الوجعَ الجاثمَ في الصورة ينفتح أكثر حين يرى الشاعر إلى سقوط عدد من الأهل شهداءَ برصاص الاحتلال الغادر في الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل فجر الخامس من شباط ١٩٩٤.. فتكون قصيدة شفيق حبيب "يا أيها الحرمُ المحزونُ" صرخةً مدويةً لا حدّ لها، صرخةً تحمل الكثير من الأسئلة :

هــــذا دمـــــي مســـــتباحٌ في مســـــاجدِنا
أضــحى الرصـــاصُ لســـانَ الحاقـــدِ المَــذِرِ
أيُّ المـــــذاهبِ تـــــدعو المـــــؤمنين بهـــــا
أن يحصـــــدَ الشـــــرُّ أســـــرابًا البشـــــرِ
يـــا أيهـــا الحـــرمُ المحـــزونُ فيـــك قضـــى
أهلـــي وهـــم يلتقـــونَ اللهَ في السّـــحَرِ

وإذا كان الشاعر يسأل لماذا ؟؟ فإنَّ الواقع يذبح السؤال مع سقوط كل شهيد جديد على الطريق..

لكن هل بقي شفيق حبيب مُصرًّا على تلاوة حزنه دون كتابة أي حرف من حروف الأمل؟؟

في الإجابة تلتقي القصيدة المكتوبة في العام ١٩٩٤ مع قصيدة "مُخبرٌ ومحقق" المكتوبة في العام ١٩٨٢. حيث توهُّج الضوء من خلال دم الشهادة :

نمْ يـــا شـــهيدي! قريـــرَ العـــينِ أنـــت لنـــا
منــــــارةٌ فـــــوقَ دربٍ مُظلـــــمٍ خطِـــــرِ

في كـــلِّ يـــومٍ علـــى دربِ النضـــالِ لنـــا
مشـــاعلٌ عصـــفتْ بالنـــارِ والشـــررِ

هـــذا الـــترابُ لنـــا لا للـــذين أتـــوْا
كـــي يزرعـــوا المـــوتَ أو أن يســـرقوا ثمـــري

الله أكـــبرُ مـــا لانـــت قنـــاةُ أبـــي
يـــا أمَّـــتي انتصـــبي في الكـــرْبِ واصـــطبري

الشاعر يرى فلسطين، ترابَ فلسطين، شوارعَ فلسطين، وجوهَ الأهل في فلسطين، من خلال هذا الانفتاح على الضوء القادم من الإصرار على التشبث بشجرة النهار المرتبطة بالشهادة.. الشهيد يتلو النهوض ويكتبه ليكون في القصيدة صورةَ الحلم، وحلمَ الصورة.. وهو كذلك يسجل حضورَ الفعل المرتبط بنهار الانتفاضة وزيت استمراريتها..

ولأنني تعرفتُ على الشاعر في قصيدته "مُخبرٌ ومحقق" منذ سنوات، ووقفت عندها كثيرًا في قراءة هذا المدّ الرائع من الإصرار على الأمل.. فقد بقي شفيق حبيب بالنسبة لي فارسَ قصيدةٍ تؤكدُ على صورة الشجر الشامخ والأمل الواعد... لذلك أختم بقوله من هذه القصيدة :

فانظرْ إلى هذا الترابِ عليه بصْماتي /

تلوحُ وتظهرُ /

وعظامُ جدّي في الثرى تخضَوضِرُ /

إني هنا /

في الأرضِ موجودٌ... /

وفي الأشجارِ... /

في ماء الغيومِ.... /

وفي هواءِ الجوِّ عَصْفًا أعبرُ /

إني هنا / قدرٌ على هذا الثرى /

أنا لست أنسى ما جرى /

لا أغفرُ..

يُذكر أن الشاعر شفيق حبيب من مواليد دير حنا – الجليل - عام ١٩٤١.. وكان قد درس الابتدائية في مدرسة قريته، ثم الثانوية في المدرسة الثانوية البلدية بالناصرة.. بعدها درس المحاسبة وأحرز دبلوم محاسبة من دار الموظف بحيفا.. وانتسب إلى معهد الصحافة والعلاقات العامة في المعهد البريطاني بالقدس. لينال دبلومًا، بعد حين. برز نشاطه الأدبي كشاعر في العديد من المهرجانات الشعرية، إلى جانب مانشره في الصحف والمجلات.

سُجن شفيق حبيب بتاريخ ١٩٩٠/٦/١٣ وصودر ديوانه "العودة إلى الآتي" وجميع مؤلفاته من بيته والمكتبات العامّة وتمّ إتلافها حرقا بأمر من المحكمة بعكا حيث اتهمته سلطات الاحتلال بتأييد الانتفاضة والتحريض على العنف.

عن كتاب :

" عشرون قمراً للوطن.. ودراسات في الشعر الفلسطيني"

للأستاذ الباحث : طلعت سقيرق – سوريا

جريدة : " الاتحاد الحيفاوية " ١٤-٤-٢٠٠٥

موقع : " مؤسسة فلسطين للثقافة" ٢٥-٩-٢٠٠٨